

الفَصْلُ الْأَوَّلُ
القرآن الكريم
المعجزة الخالدة

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ

قَالَ تَعَالَى:

﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فُصِّلَتْ: ٥٣).

آيات الأنبياء

إنه ما من نبي إلا وكانت له آية تدل على صدقه في كونه مرسلًا من رب العالمين، ويدل على ذلك قول النبي ﷺ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (رواه البخاري ومسلم).

لكن هذا لا يلزم منه أن تكون آيات الأنبياء عليهم السلام قد حُكيت لنا، فنحن لا نعرف آيات يونس عليه السلام، ولا سليمان عليه السلام، ولا يحيى عليه السلام، ولا إدريس عليه السلام، وعدم معرفتنا بها لا يعني عدم وجودها، بل نؤمن بوجودها بدلالة الحديث النبوي.

والأنبياء عليهم السلام تكون لهم أكثر من آية، وتتمايز هذه الآيات في عظمتها، لذا لا يلزم أن تكون كل آية من آياتهم مما برع فيه أقوامهم، وإنما يقال: مما يدركه أقوامهم، فعيسى عليه السلام كان يحيي الموتى بإذن الله، ويبرئ الأكمه بإذن الله، وكذلك كان يخبر قومه بما يدخرونه في بيوتهم، فهل برع القوم في كل هذه الأمور؟! (١)

وكذا نبينا محمد ﷺ؛ كانت أعظم آياته القرآن الكريم، وكان من آياته انشقاق القمر، والإسراء إلى بيت المقدس، والمعراج إلى السماء، وغيرها كثير، فهل برع العرب في كل موضوع هذه الآيات؟!

(١) يذكر بعض العلماء أن قوم عيسى عليه السلام قد برعوا في الطب، وليس لهذه المعلومة أصل صحيح، فقومه هم اليهود، ولم يشتهر اليهود بالطب، ولعل قولهم هذا كان نتيجة لمقدمة عقلية (أي: أن كل نبي يأتي بمعجزة من جنس ما برع فيه قومه)، وكانت معجزة عيسى عليه السلام تتعلق بإبراء المرضى وإحياء الموتى، فظنوا في قوم عيسى عليه السلام معرفة الطب والعناية به، وإلا فما الذي برع فيه قوم عيسى عليه السلام لما قال لهم إنه يُخبرهم بما يدخرون في بيوتهم؟!

لذا فإن الأصوب أن يُقال: إن مقام النظر أن تكون الآية مما يدركها قوم النبي سواء برعوا فيها أو لم يرعوا، تحدّى بها النبي، أو لم يتحدّها، عارضها قومه أو لم يعارضوها، كانت ابتداءً أو كانت بطلب من القوم.

وقد شاع تسمية آيات الأنبياء ﷺ بالمعجزات، حتى غلب لفظ المعجزة على لفظ الآية في آيات الأنبياء، والوارد في القرآن تسميتها بالآية والبرهان والسلطان والبيّنة. ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ (طه: ٢٢)، وقوله تعالى: ﴿أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَنُوكَ بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (القصص: ٣٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَنْ مَا كَانَتِ آبَاؤُنَا فَاتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (إبراهيم: ١٠ - ١١).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ (الأعراف: ٧٣).

والآية: العلامة الدالة على صدق الرسول ﷺ، بأنه مُرسل من ربه، وهذا المصطلح هو الغالب في القرآن والسنة من بين المصطلحات الأخرى التي جاءت فيها،

وبقي هذا المصطلح في كلام الصحابة والتابعين وأتباعهم^(١)، حتى برز أهل الجدل، ودخلوا في جدالهم فيما بينهم أو مع بعض الزنادقة الذين يطعنون في الإسلام، وقد يتسبون إليهم أحياناً؛ فلما برز هؤلاء ظهر عندهم الحديث عن (المعجزة)، وكانت كشأن غيرها من المصطلحات الحادثة البعيدة عن مصطلحات الكتاب والسنة، لكن قدر الله لها الشيوع والذيع.

ولو وازنت بين مصطلح القرآن والسنة (الآية)، وهذا المصطلح الحادث (المعجزة) لظهر لك أن مصطلح القرآن والسنة لا يحتاج إلى تلك الشروط التي عرّف بها هؤلاء مصطلح المعجزة؛ لأن الآية هي العلامة الدالة على صدق النبي، وهي مستلزمة لذلك إذا نطق بها، وعلى هذا جميع آيات الأنبياء ﷺ. أما مصطلح المعجزة، فاحتاج من يقول بها إلى تقييدات لها سمّوها (شروط المعجزة)، وقد بُنيت هذه الشروط شيئاً فشيئاً حتى تكاملت إلى سبعة شروط عند المتأخرين، وما دعاهم لذلك إلا الحرص على عدم انخرام التعريف الذي اختاروه لآيات الأنبياء وسمّوه بالمعجزات.

وبما أن الأنبياء ﷺ ليست لهم معجزة واحدة، فإن ما يذكره بعض العلماء من شروط للمعجزة فإنها لا تتناسب مع معجزات الأنبياء، ومن أهم الشروط التي ذكروها: أن المعجزة تكون مقرونة بالتحدي، وهذا الشرط لا يتناسب مع كثير من معجزاتهم، بل إنها كلها - إلا القرآن - لم يُتحدّ بها، فبعضها عارضها الكفار ظناً منهم أنه بمقدورهم الغلبة على النبي ﷺ كحال السحرة مع موسى ﷺ، وبعضها طلبها المشركون آية للتصديق، ولم يتحدّهم بها النبي ﷺ؛ كانشقاق القمر، وبعضها حدث

(١) لماذا لم يتكلم الصحابة والتابعون وأتباعهم عن (المعجزة وإعجاز القرآن) كما هو الحال عند من بعدهم؟ الذي يظهر أن الأمر مرتبط بالحاجة، فإعجاز القرآن كان مستقرّاً في أذهانهم، ولم يكن في عصرهم من يشكّ في هذا أو يتكلم فيه؛ لذا لم تقع الحاجة إلى الكلام المسهب فيه، واقتصر الأمر على تفسير الآيات المتعلقة بالمعجزات من جهة بيان المعاني فحسب.

بين قوم مؤمنين؛ كانبجاس الماء لموسى عليه السلام، وما كان كذلك، فليس مقامه مقام التحدي، وبعضها حدث للنبي ﷺ قبل نبوته؛ كشق الصدر الذي كان له قبل بعثته.

ومن هنا تعلم أن اشتراط التحدي في تسمية المعجزة ليس بسديد، وإنما الذي دعا إليه هو حصر الحديث عن آيات الأنبياء بالآية العظمى لبنينا ﷺ، وهي القرآن الكريم الذي تحدى الله به الإنس والجن.

ومما وقع من شروط المعجزة، وليس موافقاً لواقع معجزات الأنبياء دعوى (أن تكون المعجزة مقارنةً لدعوى النبوة)، والحال أن هناك معجزات كانت قبل دعوى النبوة، وهناك معجزات حصلت بعد وفاة النبي ﷺ، ومن ذلك ما ظهر بعده من معجزات غيبية أخبر عنها القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (الجمعة: ١ - ٣)، فقد دخل غير العرب في دين الله أفواجاً بعد وفاة النبي ﷺ تصديقاً لهذا الخبر.

ومما ينبغي التنبيه له في موضوع (معجزات - آيات - الأنبياء) أنها ليست هي الطريق الوحيد لإثبات نبوة الأنبياء، لذا تجد أن أغلب الناس يؤمنون بدون أن يظهر لهم البرهان والحجة على معجزة من المعجزات، ومما يدل على ذلك الأمثلة على ذلك ما وقع من أسئلة هرقل (ملك الروم) لأبي سفيان، فقد استدل هرقل على صدق النبي ﷺ بأحواله، والأحوال من أعظم ما يمكن فيه معرفة الكاذب من الصادق.

وإن كثيراً من الناس آمنوا برسالة نبينا محمد ﷺ، ولم يكن طريق إيمانهم به هو المعجزات، بل كان إيمانهم بأقل من ذلك بكثير، وهذا معروف مشتهر بين من يدعون الكفار إلى توحيد الله وتعبيد الناس له.

ومما ينبغي التنبيه له في موضوع (إعجاز القرآن) أن هذا المصطلح أحدث بلبله في التفريق بين ما تُحَدِّث به العرب صراحة وبين (دلائل الصدق) الأخرى التي فيها سماء العلماء (أنواع الإعجاز القرآني)؛ كالإخبار بالغيوب، فظن بعض الناس أنها

داخلة في التحدي، والصحيح أنها دلائل صدق، لكنها ليست مما تحدى الله به الإنس والجن.

وأوضح الأدلة على ذلك أن الله ﷻ قد تحدّاهم بأن يأتوا بسورة، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٣). وإذا جمعت الوجوه التي حُكِيت في أنواع الإعجاز وجدت أنها لا تكون في كل سورة، بل تتخلف في كثير من السور، فالذي ينتظم في السورة ولا ينخرم هو التحدي بالنظم والبيان دون سائر الأنواع المُقَحَّمَة في الإعجاز القرآني. فأنت لا تجد إعجازاً (غيبياً) في كل سورة، ولا تجد إعجازاً (علمياً) في كل سورة، ولا تجد إعجازاً (تشريعياً) في كل سورة، لكن لا يمكن أن تخلو سورة من الإعجاز الكائن في النظم والبيان العربي.

فالذي يوجد في كل سورة بلا استثناء هو الوجه المتحدى به، وهو ما يتعلق بالنظم العربي لهذا القرآن (لغةً وبلاغةً وأسلوباً) بأي اصطلاح اصطلاح عليه العلماء؛ كقول بعضهم: الإعجاز البلاغي، وقول آخرين: الإعجاز البياني ... إلخ، فإن مرجعها إلى النظم العربي المتميز لهذا القرآن الكريم.

وليس المراد في نقد مصطلح (المعجزة) التخلي عن هذا المصطلح الذي توارد عليه العلماء جيلاً بعد جيل، وإنما المراد تصحيح بعض ما وقع في هذا الموضوع، والاجتهاد في ردّ تعريف المعجزة إلى مصطلح الكتاب والسنة قدر الطاقة.

ويمكن تعريف المعجزة بالآتي: آية النبي المختصة به، الخارقة للعادة، التي لا يقدر الخلق على الإتيان بمثلهما، الدالة على صدق النبي تارة، وعلى غير ذلك تارة.

من دلائل نبوة النبي ﷺ

إن المسلم حين يؤمن بنبوة النبي ﷺ إنما يؤمن بعقيدة راسخة رسوخ الجبال الرواسي، ورسوؤها مصدره أنها عقيدة قامت على العلم والدليل والبرهان، ودلائل النبوة الشاهدة بنبوة نبينا ﷺ متنوعة وكثيرة، ويجمعها أقسام ستة:

الأول: الغيوب التي أخبر عنها النبي ﷺ وتحققت حال حياته أو بعد وفاته كما أخبر عنها، ومن هذا النوع أيضًا ما أخبر به ﷺ من الإعجاز العلمي الذي شهد بصحته العلم التجريبي الحديث.

الثاني: المعجزات الحسية التي وهبها الله للنبي ﷺ كتكثير الطعام وشفاء المرضى وانشقاق القمر.

الثالث: الدلائل المعنوية، كاستجابة الله ﷻ دعاءه ﷺ، وعصمته له من القتل، وانتشار رسالته ﷺ، فهذا النوع من الدلائل يدل على تأييد الله ﷻ له ومعيته لشخصه ثم لدعوته ودينه، ولا يؤيد الله دعيًا يفترى عليه الكذب بمثل هذا.

وأما رابع أنواع دلائل نبوته ﷺ فهو أعظمها وأدومها، إنه القرآن الكريم معجزة الله التي لا تبليها السُّنُونُ ولا القرون، هذا الكتاب معجزة خالدة ودليل باهر بما أودعه الله من أنواع الإعجاز العلمي والتشريعي والبياني، وغيرها من وجوه الإعجاز.

وخامس أنواع دلائل النبوة إخبارُ النبوات السابقة وتبشيرها بمقدمه ﷺ، فهو النبي الذي أخذ الله الميثاق على الأنبياء أن يؤمنوا به وينصروه حال بعثته، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: ٨١).

وأما سادس أنواع دلائل النبوة فأخلاق النبي ﷺ وأحواله الشخصية الدالة على كماله ونبوته، إذ لم تجتمع فيه هذه الصفات وتلك الكمالات إلا من تأديب الله له، فقد أدبه فأحسن تأديبه.

إعجاز القرآن

القرآن الكريم كتاب مُعْجَز ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٢) أعجزَ العربَ ببلاغته وبيانه الشامل للفظ والتركيب والمعنى، وقد اعتنى علماء المسلمين بإعجاز القرآن الكريم فألفوا رسائل وكتبًا كثيرة في ذلك الوقت، كما كتب فيه المعاصرون رسائل ومؤلفات قيِّمة أيضًا وإن كان الجانب الأبرز وقت نزول القرآن هو إعجازه البياني، إلا أن إعجاز القرآن يشمل جوانب عديدة. وقد تحدى أن الرسول ﷺ العرب بالقرآن على مراحل ثلاثة:

١ - تحداهم بالقرآن كله، وذلك في قول الله تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨).

٢ - ثم تحداهم القرآن بعشر سور من القرآن؛ وذلك في قول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ فَأَلْزَمُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (هود: ١٣، ١٤).

٣ - ثم تحداهم بسورة واحدة من القرآن في قول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس: ٣٨)، وقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٣).

ومع صدق هذا التحدي عجزَ العربُ عن تحدي القرآن، وقد كانت "العربية" في ريعان شبابها وقوتها وإلى اليوم وحتى آخر الزمان. إن إعجاز القرآن من الأدلة على صدقه، وأنه من عند الله تعالى حقًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ

اللَّهُ لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿ (النساء: ٨٢).

إن من المعلوم والثابت الذي يُدْعَن له كل منصف ويصدق به كل عاقل أن القرآن الكريم فيه من الإعجاز العظيم ما يدل على أنه من عند الله ﷻ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: ٥٣).

وجوه إعجاز القرآن:

القرآن مُعْجَزٌ في ألفاظه وأسلوبه وفي بيانه ونظمه وفي تشريعاته وأحكامه الرامية لتكوين مجتمع إنساني مثالي واقعي، كما أنه مُعْجَزٌ فيما احتوى من علوم ومعارف لم يجمعها كتاب قبله ولا بعده، وتحققت باكتشافات العلماء لبعضها في العصور المتأخرة كحقائق ثابتة. وقد اشتهر في كتب علوم القرآن من وجوه الإعجاز الإعجاز اللغوي.

إن القرآن الذي عجز العرب عن معارضته لم يخرج عن سنن كلامهم ألفاظاً وحروفاً تركيباً وأسلوباً، ولكنه في اتساق حروفه وطلاوة عبارته وحلاوة أسلوبه وجرس آياته ومراعاة مقتضيات الحال في ألوان البيان في الجمل الاسمية والفعلية، وفي النفي والإثبات، وفي الذكر والحذف، وفي التعريف والتنكير، وفي التقديم والتأخير، الحقيقة والمجاز، وفي الإطناب والإيجاز وفي العموم والخصوص، وفي الإطلاق والتقييد، وفي النص والفحوى.

هكذا في كل ما سبق نجد القرآن هو القمة التي تعجز أمامها القدرة اللغوية لدى البشر أجمعين، وعلماء اللغة العربية هم أدرى الناس بذلك وهم يعلمون أن قريشاً الذين نزل القرآن بِلُغَتِهِمْ هم أوضح العرب لساناً وأقدرهم بياناً، بل هم حكام أسواق البلاغة والبيان في عكاظ، وذوي المجنة والمجاز، وهم من أدرك عظمة بيان القرآن، وجلال كلامه، وقد تحداهم الله أن يأتوا بمثله فلم يقدرُوا على ذلك.

إنَّ كلام الله ﷻ ليس ككلام البشر، وأوجه إعجاز القرآن كثيرة جدا منها:

أولاً: الإعجاز اللغوي:

فهو في أعلى طبقات البلاغة والفصاحة التي لا يأتي بمثلها بشرٌ ولهذا كان فيه تحدٍّ لكفار قريش. فالقرآن الكريم فيه القمة في فصاحة الألفاظ وفي البلاغة، فتركيب الكلام والآيات وتركيب الجمل في الآية الواحدة يدل على أنه الغاية في البيان، ولا يمكن للجن والإنس لو اجتمعوا أن يكونوا دائماً على أعلى مستوى في هذا النظم. قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ لِّينْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (الإسراء: ٨٨).

ثانياً: الإعجاز التشريعي:

عرفت البشرية في عصور التاريخ ألواناً من المذاهب والنظريات، والنظم والتشريعات التي تستهدف سعادة الفرد في مجتمع فاضل، وكتب الكثير من الفلاسفة عن المدينة الفاضلة، ولكن واحداً من تلك المذاهب لم يبلغ من الروعة والجلال مبلغ القرآن في إعجازه التشريعي؛ فهو يبدأ بتربية الفرد حيث يحرر وجدانه بعقيدة التوحيد، ويأمر بأداء العبادات من صلاة وزكاة وصوم وحج، ويدعوه إلى الأخلاق الحسنة كالإيثار والجود، والكرم، والصبر، والأمانة، ويغرس في نفسه المسؤولية الفردية.

وينتقل القرآن إلى بناء الأسرة؛ لأنها نواة المجتمع فيشرع الزواج ويقيم رباط الأسرة على الود والرحمة، والسكن النفسي، والعشرة بالمعروف ومراعاة خصائص الرجل وخصائص المرأة.

ويقرر القرآن كيفية قيام الدولة التي تسود المجتمع، وصفات حكومتها فهي حكومة تقوم على الشورى. وهي حكومة تقوم على العدل المطلق في نطاق القدرة البشرية. والتشريع في الحكومة المسلمة ليس متروكاً للناس، وإنما هو مقرر من الله ﷻ في القرآن والسنة النبوية المطهرة.

والقرآن يقرّر صيانة الضرورات الخمس للحياة الإنسانية، إذ يستحيل قيام كيان اجتماعي يسوده العدل والأمن النفسي والاجتماعي إلا بالمحافظة على الدين، والنفس، والعرض والمال والعقل.

ويقرر القرآن أيضًا العلاقات الدولية في الحرب والسلم بين المسلمين وجيرانهم، أو معاهدتهم، وهي أرفع معاملة عُرِفَتْ في عصور الحضارة الإنسانية، وهذه التشريعات أخرج القرآن خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله وَعَلَى.

فالقرآن مُعْجَزٌ في تنظيمه لأحوال البشر في جانب العقائد والعبادات والأخلاق، وفي تنظيمه لجميع مصالح الأفراد والمجتمعات والسياسات والدول؛ فقد نظم الإسلام حياة الإنسان في نفسه، ومع غيره؛ فهناك آداب الزوجية، وحقوق الوالدين والأبناء والأصدقاء والجيران، وولاية الأمر، والمجتمع، والمسلمين بعامّة، ونظم العلاقة بغير المسلمين.

ثالثاً: الإعجاز التأثري:

القرآن له سلطان على النفوس، وليس هناك من كلام البشر ما له سلطان على النفوس في كل الكلام، ولكن القرآن له سلطان على النفوس؛ لأنه كلام الله وَعَلَى. وهذا القرآن سببٌ عظيمٌ جداً لتأثير كثير من الكفرة بالإسلام.

عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَلْقُوتُ﴾ (٣٥) أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَظِرُونَ (الطور: ٣٥ - ٣٧) قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ، وَذَلِكَ أَوَّلَ مَا وَقَرَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ سُورَةَ النَّجْمِ فَسَجَدَ بِهَا فَمَا بَقِيَ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ إِلَّا سَجَدَ، فَأَخَذَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ كَفًّا مِنْ حَصَى أَوْ تُرَابٍ، فَرَفَعَهُ إِلَى وَجْهِهِ وَقَالَ: «يَكْفِينِي هَذَا». قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ بَعْدُ قَتَلَ كَافِرًا» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

رابعاً: إعجاز الهداية:

وهي أن هذا الدين هو دين الفطرة التي فطر الناس عليها، فإذا حلَّ في أمةٍ استوطنها؛ فصار جزءاً من كيائها، وما دخل أرضاً إلا وبقي فيها رغم ما يصيب أهلها من الابتلاء في دينهم.

خامساً: الإعجاز الغيبي:

سواء الغيب الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وهذا دليل على صدق النبي ﷺ وإعجاز القرآن؛ وهذا الدليل مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمُ أَنْهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (آل عمران: ٤٤). وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود: ٤٩). وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف: ١٠٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ لَا تُرَاتِبَ الْمُبْتُلُونَ﴾ (٤٨) ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَظِرُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يُجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٨ - ٤٩). فإذا كان النبي ﷺ ليس موجوداً في تلك الأمكنة، ولا يستطيع أن يقرأ ولا يكتب، دل هذا قطعاً أن هذه الأخبار إنما هي من عند الله ﷻ، الذي لا تخفى عليه خافية.

ومن إخباره بالغيب المستقبل؛ قوله تعالى: ﴿الْم ١ غُلِبَتِ الرُّومُ ٢﴾ (٢) ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ٣﴾ (٣) ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ ٤﴾ (٤) ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٥﴾ (٥) ﴿يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٦﴾ (٦) ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٢-٦)، وقد تحققت غلبة الروم بعد سنوات قليلة.

سادساً: الإعجاز العلمي:

الإعجاز العلمي هو: إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ مما يظهر صدقه فيما أخبر به عن ربه ﷻ وهو باب من أبواب الإعجاز الغيبي.

ونحن في زمان انتشر فيه سلطان العلم المادي وتباهى الإنسان بمعرفته لكثير من الأمور التي خفيت عمن قبله من الأجيال، ولكن كثيرا من هذه الأمور التي يدعي الإنسان اكتشافها ومعرفتها، نجد أن القرآن الكريم قد تحدث عنها وبينها فعلى سبيل المثال تكوين الإنسان في بطن أمه تحدثت عنه آيات كثيرة من القرآن قبل أربعة عشر قرنا من الزمان بينما لم يتعرف علماء الطب على ذلك إلا في زمن متأخر.

وقد اهتم عدد من العلماء المسلمين بهذا الشأن فأنشؤوا ما يسمى "بهئية الإعجاز العلمي في القرآن" لبيان سبب القرآن في توضيح كثير من أمور العلم التي يدعي كثير من العلماء الماديين أنها لم تعرف إلا في هذا الزمان.

وقد ذكر الإمام السيوطي من وجوه إعجاز القرآن:

١ - حُسْنُ تَأْلِيْفِهِ وَالتَّنَامُ كَلِمِهِ وَفَصَاحَتُهُ وَبِلَاغَتُهُ الْخَارِقَةُ عَادَةُ الْعَرَبِ الَّذِينَ هُمْ فَرَسَانِ الْكَلَامِ وَأَرْبَابُ هَذَا الشَّأْنِ.

٢ - صَوْرَةُ نَظْمِهِ الْعَجِيبُ وَالْأَسْلُوبُ الْغَرِيبُ الْمَخَالِفُ لِأَسَالِيبِ كَلَامِ الْعَرَبِ وَمِنْهَا نَظْمُهَا وَنَثَرُهَا الَّذِي جَاءَ عَلَيْهِ وَوَقِفَتْ عَلَيْهِ مَقَاطِعُ آيَاتِهِ وَانْتَهَتْ إِلَيْهِ فَوَاصِلُ كَلِمَاتِهِ وَلَمْ يَوْجَدْ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ نَظِيرَ لَهُ.

٣ - مَا انطوى عليه من الأخبار بالمغيّبات وما لم يكن فوجد كما ورد.

٤ - ما أنبأ به من أخبار القرون الماضية والشرائع السالفة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك فيورده على وجهه ويأتي به على نصه وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب.

٥- ما تضمنه من الإخبار عن الضمائر كقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٢)، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَنِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُتْسَى الْمَصِيرُ﴾ (المجادلة: ٨).

٦- ومنها آيات وردت بتعجيز قوم في قضايا وإعلامهم أنهم لا يفعلونها فما فعلوا ولا قدروا كقوله ﷻ في اليهود: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٩٤ - ٩٥).

٧- ومنها الروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعهم والهيبة التي تعزيمهم عند سماع تلاوته.

٨- ومنها كونه آياته باقية لا يعدم ما بقيت الدنيا مع تكفُّل الله بحفظه.

٩- ومنها جمعه لعلوم ومعارف لم يجمعها كتاب من الكتب ولا أحاط بعلمها أحد في كلمات قليلة وأحرف معدودة.